الفصل السادس والعشرون

«سرقة الفرس»

لم يحضر الأمير فواز رجاله إلى وادي الحجل من أجل قتال الفدعان الغزاة، إذ إن المواجهة معهم كانت عرضية. كان الغرض من غزو الرولة استعادة فرس أصيلة كانت قبيلة السبع قد سرقتها قبل وقت قصير. إن فلحا (أوجالبه الحظ كما يسمونها) من إحدى أفضل السلالات في الجزيرة العربية ومشهورة في المنطقة كلها. عندما علم فواز بأخذها أرسل مناحي إلى قبيلة السبع بعرض قدره أربعون جملاً مقابل استعادتها، وهو ثمن كبير للفرس، ولكن قبيلة السبع رفضت العرض. والبديل الوحيد لاستعادة (فلحا) عن طريق الشراء ـ كما تعرف قبيلة السبع ـ هو استرجاعها بالقوة. وأخبرهم فواز مقدماً بمقصده هذا، ولم يصل إلى حد إعلان الحرب، لكنه تحد فرساني. واقتضت قواعد اللعبة التفاهم الضمني بألا يسفك دم من الجانبين.

وتقصّت عيون الأمير فواز وجود الفرس في مخيم من مخيمات قبيلة السبع في الجوار واستطلعوا المنطقة بدقة. اكتشفوا أن جمال وخيول السبع وبينها فلحا ترعى تحت حراسة بضعة فتيان في انهدام يبعد عدة أميال عن المخيم الرئيسي الذي قوامه حوالي سبعين خيمة. هذا الوضع أرضى فوازاً من ناحيتين: أنه سيسهل

obeikandl.com

تنفيذ خطته في استعادة فرسه بالحيلة. وأكدت افتراضه بأن السبع لم يحسبوا حساباً لاحتمال غارة الرولة بهذه السرعة؛ لأن القليل من المطر هطل في تلك المنطقة مما جعل السفر صعباً. ربما فكروا أن الرولة لن يغامروا إلى هذا العمق من الحماد حتى وقت لاحق عندما تصبح المراعي خصبةً والماء وفيراً. من الواضح على أي حال ـ في الوقت الحاضر ـ أن حراس فلحا شعروا بالأمان. وبالإضافة إلى ذلك إذا حدثت أية مناوشات فسيكون القتال بعيداً عن خيام السبع، لأن البدو النبلاء يعتبرون قتال العدو قرب خيامهم بربرياً. إنهم يعتقدون أن الأتراك والإفرنج (الأوربيين) وحكام المناطق الزراعية في الجزيرة العربية هم وحدهم الذين يحاربون بهذه الطريقة التي تعرض نساءهم وأطفالهم للخطر.

حالف الحظ مخططات فواز من البداية إلى النهاية ــ هدمنا المخيم في الصباح الباكر. وبعد بضع ساعات كنا نحاصر المرعى الذي ترعى فيه خيول السبع. وتمت الحركة كلها بهدوء ودون الاحتكاك بالأعداء. ولكن مراكزهم الأمامية رأت قواتنا الآن، فحاولوا التملص منا لنقل الأنباء إلى المعسكر. قبض فرسان جمالنا بسهولة على الهاربين الذين توقفوا عندما أطلقت فوق رؤوسهم بضع رصاصات واستسلموا دون إبداء أية مقاومة. كانوا مجرد فتيان تتراوح أعمارهم بين / ١٤ و ١٦ / سنة. وبدعابة فظة قصّ الآسرون بعض ضفائر الفتيان الطويلة وربطوهم بها يداً وقدماً. إنها إهانة رهيبة لهؤلاء الفتيان الأباة الذين يثمنون غالياً «قرونهم» الستة أو الثمانية كما يسمي البدو هذه الضفائر.

حوالي منتصف النهار وصلنا الانهدام الذي ترعى فيه الخيول. إنه منظر خلاّب: السماء زرقاء وشمس الربيع البراقة دافئة وبهيجة والجو مليء برائحة الأعشاب الفتية العطرة. انتشرت الجياد والجمال ترعى بهدوء والرعاة الناعسون غافلون تماماً عن حضورنا حتى ظهر فرسان جمالنا فوق حافة الانهدام. عندما أدركوا ما يحدث. كرهت أن أفسد تكاسلهم اللذيذ وأسفت ـ فوق كل شيء ــ لخيول السبع التي ستساق فجأة من مراعيها البهيجة.

رفعت الأفراس رؤوسها بفضول عندما نهض الرعيان بعد أن استفاقوا من قيلولتهم بانزعاج وبدأوا يتصايحون محذرين. ونجح بعضهم في حلحلة قيود جيادهم الصوفية وقفزوا فوق ظهورها وهربوا، لكنهم كانوا قلة، وقد تم أسر اثنين أو ثلاثة منهم في النهاية.

أصبحت خيول السبع متململة عندما بدأ فرسان الرولة يجرون حولها. ونظراً لأن قوائمها الأمامية مقيدة فلم يكن بإمكانها سوى القزل بعجز. وأخيراً حرّر رجالنا حوالي عشرين جواداً ومن بينهم فلحا ـ تلك الفرس الحمراء مقصد بحثنا. كانت فلحا مقيدة بأغلال حديدية بدلاً من الحبال الصوفية كان الأمير فواز قد أحضر معه مبردين تحسباً لمثل هذا الحدث وقد فرح جداً لرؤية فلحا ثانية لأنها تساوي بالنسبة له وللرولة أكثر من بقية الجياد مجتمعةً. بدأنا بالتناوب قطع القيود الحديدية بالمبردين كل رجلين معاً، وعندما انتهينا من العمل قبّل الأمير فواز حوافر فرسه من الفرح.

عندما شعرت فلحا بحريتها بدأت تطفر وتصهل بينما أنا ممسك برسنها ـ طلبت من الأمير فواز أن أربطها إلى شداد جملي حتى أقودها إلى المخيم فأجاب «اركبها!» وقال إن علينا أن نركب الجياد المأسورة حتى نبتعد قدر الإمكان عن العدو في أقصر وقت. وهكذا قفزت على ظهر فلحا وعدوت مع رفاقي إلى حيث ينتظرنا فرسان الجمال مع الأسرى.

أسر الرولة ما مجموعه ثلاثة وعشرون فرساً. وعندما ودعنا رعيان السبع تقدم أحدهم ـ وهو شاب صغير ـ من الأمير فواز وصاح قائلاً: «عيب!» فسأله الأمير فواز: «من أنت؟» أجاب الشاب: «جزا بن عجلان» وسأله فواز: «ماذا تريد؟» أجاب الشاب: «انظر! بالدموع فقط أستطيع أن أسقي فريحا عندما تبعدها عني، ولن ترضع ثانية حليب نجا وسميحا ونوما كما أن بناتها سيحزنّ عليها». وتفهم الأمير فواز حزن الشاب على فرسه المفقودة فسأله: «كم يبلغ عمر سميحا ونوما؟» فأجاب «سميحا عمرها صيف واحد ونوما صيفان ولكن انظر فريحا مهرة صغيرة» فسأل الأمير: «ولذلك تريد استرجاع أم مهراتك؟»

فأجاب الشاب: «ليس لهذا السبب فقط، بل لأن من العيب أن تسرق الأفراس المقيدة بالصوف من مرعانا». وسأل الأمير: «ألم أحذركم بشرف؟» فرد الشاب: «صدقنا كلامك بخصوص فلحا فقط ولذلك قيدناها بالفولاذ بينما كل الأفراس الأخرى مقيدة فقط بالصوف». ونظر الأمير فواز بإمعان في البعد ثم أخذ يداعب ضفائر شعره كما هي عادته. وبعدئذ لف إحدى ضفائره على سبابته ونظر في عيني الشاب السبعي مباشرة وقال: «إنك جريء ولكنك تقول الحق ولست غاضباً منك. الآن فهمت لماذا قيدت فلحا لوحدها بالأغلال الحديدية ولذلك فسأكافئ صدقك». أمر فواز رجاله الترجل عن الأفراس المأسورة وإعادتها إلى السبع. كما أمر مناحي أن يأخذ الضفائر التي قصوها من رؤوس فتيان السبع من خرجه حيث وضعها تذكاراً ويرميها. قال فواز: «الله كريم! انظر إلى عزيز. في البداية يأتي في غزوة ضدنا ثم نأسره والآن يعود إلى المخيم ممتطياً أفضل أفراسنا. والتقط علي ـ الحامي الشجاع الذي يقف إلى جانبي ـ الدعابة: «ليسمح لي الأمير فواز أن أقول إن على المرء أن يراقب عزيزاً جيداً وإلا هرب بفلحا إلى أعدائكم». قال فواز «الله يقويه! إنه يركب مع النمور والصقور!» وعدل ذلك علي قائلاً: مع الأسود».

ورغم إظهارهم الابتهاج فقد استطعت أن ألحظ أن الرولة تأثروا وهم يرون السبع يركبون الخيول المأسورة ولكن لم يَشْكُ أحد من عمل الأمير الشهم لأن الكرم سيد الفضائل بين البدو.

وهكذا بدأنا مسيرتنا الطويلة إلى المخيم. وبعد أحد عشر يوماً وجدنا أنفسنا نستريح تحت سقف منزل نوري الشعلان المضياف.

* * *